مجلة الرائد

العدد : ٢٣٧ الموافق في رجب ١٤٢٣ هجري ٢٠٠٢/٩ ميلادي

عنوان المقال : محنة شعب فلسطين وبشائر نهضة الأمة	الكاتب : عبد العزيز بلحاج

مأساة شعب فلسطين من كبرى مآسي العصر بكل المقاييس .. فهي مأساة جذورها في الماضي شاهدة على جرائم الدول الاستعمارية وبشاعة ما صنعته بالدول المستضعفة ، وما سببته من ويلات ونكبات صاحبت هذه الدول ودمرت مستقبلها ومصائر أجيالها . وإذا كانت معظم الدول قد تخلصت نسبياً من الاستعمار المباشر ، وتم إخفاء جرائم " الاستغراب " الشنيعة وطُويت صفحاتها السوداء ، ومحيت من الذاكرة في عصر الشرعية الدولية ومواثيق حقوق الإنسان والحيوان وما إلى ذلك ، فامتداد مأساة فلسطين في هذا العصر يمثل وصمة عار على عالم ما بعد الحداثة وعلى جبين الإنسانية جمعاء ، كما أنها تُبرهن على مدى الظلم والطغيان الذي يعجّ به العالم رغم كل الشعارات البراقة في زمن الادعاءات والافتراءات .

وهذه المأساة لا يدري الواحد من أين يبدؤها وأين ينتهي ؛ فهي مسلسل رهيب مليء بالدماء والأحزان والأشلاء والمجازر التي طالت البشر شيوخاً وصبياناً ورُضَّعاً ، ولم تسلم الأطلال والدور والمقدسات ولا حتى الشجر والثمر من بطش الصهاينة المجرمين ، فهذه المأساة امتدت عبر عقود من الزمن ذاقت ويلاتها الأجيال تلو الأجيال .. ولا تزال مستمرة .

محنة فلسطين .. حكاية للخلود

.. فمن أين البداية إذا كانت الأحزان هي الأحزان والإرهاب هو نفس الإرهاب والمشاهد تتكرر : أرض تُغتَصب ، وبشر يُفتك بهم بوحشية قلَّ نظيرها في تاريخ الإنسانية ، وأعراض تُنتهك ، وشرعية تُداس بالأقدام صبح مساء .. والظلم ظلمات في ظلمات .. فحكاية المحنة منذ البداية هي نفس الحكاية : حكاية كيان مجرم مغتصب متغطرس أقامه جبابرة العصر ظلماً وعُدواناً ، ويسهرون على رعايته وحمايته منذ النشأة الأولى وإلى أيامنا هذه ، ويمدُّونه بكل أشكال الدعم والسلاح والمال والعتاد بدون حدود ولا شروط ، وفي المقابل شعب أعزل مستضعف أنهكته جرائم الاحتلال ، وقطعت أوصاله .. في زمن انعدام العدالة!.

ومحنة شعب فلسطين الصامد طالت كثيراً وطالت معها المآسي والمعاناة .. فمن مأساة إلى أخرى ، والمعاناة تنضاف إلى معاناة ، وجُرحُ فلسطين يزداد نزيفاً، فهل نُذكّر بمذبحة دير ياسين في عام ١٩٤٨م

قبيل الإعلان عن قيام الكيان الغاصب ، أم بالذي حدث في قريتي البعنة ودير سعد ، بما حدث في مذبحة قبية وخان يونس وكفر قاسم .. أم بمجزرة صبرا وشاتيلا .. وصولاً إلى جنين ونابلس ؟! ومسلسل الإجرام لا يزال مستمراً وفي كل يوم وبرعاية قوى الاستكبار ومباركتهم ! وكلها توضح شراسة الصهاينة الحاقدين وهمجيتهم النادرة ، وتُوضح في نفس الوقت حجم المحنة والمعاناة التي يتحملها هذا الشعب الأبي الأصيل . إن الذي يتابع هذا المسلسل المأساوي للشعب الفلسطيني يُصاب بالذهول والأسى ، ويصاب بخيمة أمل في بناء عالم وديع يسوده الأمن والعدل والسلام ، ويكاد الإحباط يستولي على القلوب ولا سيما في ظل الوهن والضعف الراهن للأمة الإسلامية .

لكن المتابع للمسار العام للأحداث ، والمتأمل في الصمود البطولي لشعب فلسطين العريق ، وإصراره العظيم على نيل حقوقه والذود على مباديء وثوابت الأمة ، يمكن له أن يستجلي عدة إشارات تدل على بشائر خير تحملها محنة فلسطين ، وبصيص أمل للانفراج في هذه الظلمة الحالكة . فبالرغم من هول الأوضاع وشدة المعاناة إلا أن الصورة ليست بالقتامة التي تكرس اليأس والإحباط وتميت القلوب ، ولنا في عبر الماضي خير موعظة ؛ فكم من محنة تحولت إلى منحة ، والأزمات إذا اشتدت انفرجت ..

عبر الماضي بين القرآن والتاريخ

يخبرنا القرآن الكريم بقصص كثيرة تعرضت فيها أمم وأشخاص لمحن ومعاناة جمة في سبيل الدفاع عن المباديء العليا وثوابت الإيمان .. وبقيت قصصهم خالدة حتى قيام الساعة ؛ كأصحاب الأخدود في سورة البروج ، حيث عمد قوم من الكفار إلى من عندهم من المؤمنين باللّه عزَّ وجلَّ فبطشوا بهم ، وأرادوا منهم أن يرجعوا عن دينهم ، فلما أبوا ذلك وثبتوا على الحق ، حفر لهم الكفار أخدوداً في الأرض وأججوا فيها النار وقذفوهم فيها .. وكم من الأنبياء أرسلهم اللّه بالحق وهداية الناس فقُهروا ومن معهم وعُذبوا وقُتِلوا : { **وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ** } [آل عمران : ١٤٦] . ولنا في رسول اللّه ﷺ ودعوته وما لقيه في سبيلها خير أسوة ومثال .. وعليه فالشدائد والمحن التي تنزل بالأقوام والأمم ليست شراً مطلقاً ، وإنما العكس إذا كانت في سبيل الدفاع عن المباديء العليا وثوابت الإيمان وكرامة الإنسان ..

فهي مصدر فخر وعزة وسؤدد: { **أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ** } [البقرة : ٢١٤] .

وإذا كانت هذه المرحلة التي تمر بها الأمة الإسلامية شديدة وصعبة ، فلقد نزلت بالمسلمين عبر التاريخ أزمات أشد وأسوأ بكثير مما عليه الحال في أيامنا هذه، ولعل من أبرز الملمات الكبرى التي ألمت بالمسلمين في الماضي :

■ زحف التتار على العالم الإسلامي في أواسط القرن السابع الهجري عام ٦٥٦هـ . وما ألحقوه من دمار وتخريب بديار المسلمين .. فقد تم الفتك بالناس ببشاعة ووحشية .. حتى سالت الدماء أنهاراً ، وهدمت المساجد والدور ، ورميت كتب الحضارة الإسلامية في نهر الفرات حتى اسوَّد ماؤه عدة أيام ، وقد ذكر الإمام ابن كثير هذه الواقعة في كتابه " البداية والنهاية " : « .. ومالوا على البلد فقتلوا جميع من قدروا عليه من الرجال والنساء والولدان والمشايخ والكهول والشبان ، ودخل كثير من الناس في الآبار وأماكن الحشوش وقنى الوسخ وكمنوا كذلك أياماً لا يظهرون ، وكان الجماعة من الناس يجتمعون إلى الخانات ويغلقون عليهم الأبواب فتفتحها التتار إما بالكسر وإما بالنار ، ثم يدخلون عليهم فيهربون إلى أعالي الأمكنة فيقتلونهم بالأسطحة حتى تجري الميازيب من الدماء في الأزقة ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .. والقتلى في الطرقات كأنها التلول ، وقد سقط عليهم المطر فتغيرت صورهم وأنتنت من جيفهم البلد وتغير الهواء ، فحصل بسببه الوباء الشديد حتى تعدى وسرى في الهواء إلى بلاد الشام ، فمات خلق كثير من تغير الجو وفساد الريح ، فاجتمع على الناس الغلاء والوباء والفناء والطعن والطاعون فإنا لله وإنا إليه راجعون » .

■ تألب جيوش الصليبيين وحملاتهم على بلاد المسلمين ، وما قاموا به من مجازر مروعة للناس وسلب لممتلكاتهم وفتنتهم في دينهم ومعتقداتهم ..

■ الحركات الاستعمارية الأخيرة وما ترتب عنها من آثار وخيمة على بلاد المسلمين ؛ من غزو في عمق الديار ، وسلب للثروات وخيرات البلاد ، والسيطرة على رقاب الناس وقهرهم وإذلالهم ، وإبقاء البلدان ذليلة ورهينة بها ، وسلب لإرادتها وحريتها ..

إن الدافع إلى ذكر هذه الشواهد هو كون أشد خطر يتهدد كيان الأمة في ظل هذه الظروف العصيبة هو اليأس والإحباط .. وحتى تبقى شعلة الأمل متقدة في قلوبنا وعقولنا في غد أفضل وفجر آت لا محالة بإذن اللَّه تعالى ، إن نحن عقدنا العزم على إصلاح أوضاعنا المتردية على كل صعيد .

وفي كل فترة من فترات الانهيار والضعف في حياة المسلمين ، لا يزالون يخرجون من محنة إلى محنة أشد منها ، ومن هزيمة إلى أقبح منها ، ومن انتكاسة إلى أخرى . ومع ذلك كله فقد خرجت هذه الأمة العظيمة في فترات كثيرة من تاريخها من تحت الأنقاض سليمة ونشيطة لتستأنف سيرها وطريقها من جديد ، وهذا كله بما أودعه اللَّه عزَّ وجلَّ فيها من مقومات وقدرات تمكنها دائماً من استعادة روحها وحيوتها ، وتواصل طريقها بعزم وثقة وروح جديدة .

محنة فلسطين وبشائر النهضة

إن الأمة الإسلامية قد عوَّدتنا من خلال التاريخ أنها كلما تعرضت للشدائد والمحن استعادت بعض ذاتيتها وسرى في جسدها نبض الحياة من جديد .. ولنا على ذلك أمثلة كثيرة قد ذكرنا بعضها في الفقرة السابقة : كمحنة هجمة التتار الشرسة ، وشدة الحملات الصليبية الحاقدة .. وفي كل هذه الحالات كانت الأمة تعيش أوضاعاً سيئة ؛ قد سرى الوهن في كيانها وأكلتها الفتن والصراعات ، وانصرف الناس من العوام والخواص عن عظائم الأمور وأفيدها إلى الانشغال بالشهوات وسفاسف الأمور .. ولكن وفي ظل المحن وتحت وطأة الشدائد تستعيد الأمة ذاتيتها ويسري في جسدها نبض الحياة من جديد وتسترد بعض عافيتها .. فتستجيب للتحديات التي تتعرض لها ، ولا تستسلم لتموت . وفي كل الظروف يُقيض اللَّه لهذه الأمة من يستجمع فيها قواها ويُوحِد صفوفها ويوجهها إلى السبيل الأوفى ؛ فتعود الأمة بذلك إلى رشدها وتعتصم بحبل ربها .. فتتحول بذلك المحن إلى مِنح ، ولنا في العصر الحالي في مأساة البوسنة والهرسك خير مثال وعبرة على ذلك ! ..

وسنحاول بإيجاز أن نستجلي بعض المؤشرات الإيجابية في محنة فلسطين من خلال الأحداث الأخيرة ، فبالرغم من أن حجم المعاناة في فلسطين ضخم بكل المقاييس ، إلا أنه لا أحد ينكر تلك الآثار الطيبة التي خلَّفتها هذه المأساة على كل المستويات :

- فعلى المستوى المحلي لم يشهد الشارع الفلسطيني وحدة وتلاحماً في المقاومة والمواقف كما

شهده في هذه الفترة ، ومع ازدياد شراسة الكيان المغتصب وهمجيته ازداد صمود الشعب الفلسطيني وقويت إرادته وعزيمته .. كما حققت المقاومة الفلسطينية نقلة نوعية في مواجهة الاحتلال ، فلقد شهدت فلسطين حوالي ٢٥ انتفاضة منذ عام ١٩٢٠م ، إلا أن انتفاضة اليوم لها مميزات خاصّة انتقلت من خلالها الانتفاضة إلى مقاومة منهجية وطويلة النفس على طريق الحرية والكرامة .

❑ وفي ظل هذه الظروف العصيبة وبالرغم من ضخامة الخسائر والضحايا برهن الشعب الفلسطيني عن إرادة قوية وفريدة من نوعها وإصرار كبير على التمسك بالثوابت والحقوق .. فقد سطر الشعب الفلسطيني أروع التضحية من أجل المبادئ والحرية وكرامة الإنسان ؛ ولنا في ملحمة جنين خير شاهد على ذلك .

❑ وإذا كان الذي وقع في جنين مجزرة مروعة راح ضحيتها المئات من الشهداء والجرحى ، إلا أن أهل جنين سجلوا بصمودهم وإيمانهم القوي وعدالة قضيتهم أروع ملحمة بطولية ، زعزعت الكيان الصهيوني الغاصب وأرعبت جيشه وأربكته ، على الرغم من قلة العدة والعدد ، وأماطت اللثام عن الشرعية الدولية ، وأسقطت الأقنعة عن المؤسسات الأممية ، وأنزلت لعنات الأجيال والتاريخ على الطغاة والمجرمين إلى أبد الآبدين . فجنين فضحت الكثير وقلبت الموازين وصنعت الأعاجيب ؛ وهي بذلك ليست كسابقاتها من المجازر التي ارتُكبت في حق شعب فلسطين وتمتاز عنها بكثير .

❑ ومع استمرار المحنة في فلسطين تتشكل على الدوام أجيال جديدة على المقاومة ورفض الاحتلال ، وتبقى القضية حية في القلوب والعقول ولا تُنسى أبداً، فقد زعم الصهاينة في البداية بأن الكبار سيموتون وأن الصغار سينسون . ولكن الشعب الفلسطيني أبان عن قدرته العظيمة على مواجهة كل التحديات مهما كبرت واشتدت ، وكلما ازداد المحتل شراسة ازداد أهل فلسطين صموداً وتحدّياً .. وأما على مستوى العالم الإسلامي فقد خلّفت هذه الأحداث آثاراً طيبة وحققت مُنجزات شتى لم تكن في الحسبان ؛ فقد حركت الشارع العربي والإسلامي من أقصاه إلى أقصاه وفي كل أنحاء العالم ، وحررته من عقدة الخوف والركود ، وأبانت هذه الجماهير عن تماسكها ووحدتها ؛ فرأينا المسيرات تملأ شوارع بعض العواصم العربية والمظاهرات والاحتجاجات المتواصلة التي ضمت مختلف الأطياف السياسية والفكرية والاجتماعية .. فلم تحظ أي قضية بهذا الإجماع الكبير على مستوى العالم العربي والإسلامي كما

حظيت به قضية فلسطين .

❑ ومن المخططات التي كادت تُؤتي أكلها في العقود الماضية هي مسألة فصل قضية فلسطين عن عمقها الإسلامي وحصرها في قضية إقليمية وقطرية ، وبالتالي قضية تهم الفلسطينيين وحدهم .. ولكن الانتفاضة أعادت القضية إلى عمقها الإسلامي ، وأحْيت وحدة الأمة وأعادت تلاحمها حول القضايا المصيرية إلى الوجود .

❑ والتطبيع في العقد الماضي ومخططاته الخطيرة وانسياق معظم الأقطار في العالم الإسلامي وراءه كان بمثابة المرض العضال الذي هدد كيان الأمة وهويتها ، وهدف إلى طمس جوهر القضية مع الكيان الصهيوني ومسخ الحاسة التاريخية للأمة المسلمة ، وقد عُقدت من أجل ذلك مؤتمرات وقمم عديدة ، كما جُندت جهود عالمية وصُرفت أموال طائلة من أجل فرض هذا المشروع الخطير على الأمة الإسلامية بأكملها .. وكادت قضية فلسطين تلقى حتفها في قاعات المؤتمرات وأروقة السياسيين .. إلا أن هذه الأحداث الأخيرة والصمود الرائع للشعب الفلسطيني أبطل مفعول كل المخططات والمكائد وأفشل جهود عِقد من الزمن ، وأعاد القضية إلى جوهرها وأصلها ، وحققت هذه المحنة ما كان في الماضي القريب صعباً للغاية وشبه مستحيل في ظل الظروف والمعطيات التي كانت موجودة ..

❑ وقد كشفت هذه الأحداث كذلك عن حجم الهوة الموجودة بين الأنظمة والشعوب .. وكيف تعالت كل الشعوب على امتداد كل الأقطار فوق الجزئيات وكل الخلافات حتى التلاحم ووحدة المصير ، وأكدت أن الكلمة الأخيرة هي للشعوب مهما طال الزمان .

وبعد .. فقد كانت هذه الإشارات الإيجابية التي حاولت استخلاصها من مأساة فلسطين ، وبعض ملامح منح في عز المحنة الراهنة من خلال قراءة للوجه الآخر للأحداث .